إشكالية تكامل الفلسفة والتاريخ

بقلم د. يمينة شيكو

قسم الفلسفة المدرسة العليا للأساتذة *بوزريعة*

بات من المؤكد في عصرنا الحالي تكامل العلوم فيما بينها. ومن ذلك تكامل التاريخ والفلسفة، واستحالة الفصل بينهما، إلى درجة أن من المؤرخين الغربيين من يرى أنهما شيء واحد.

فالمؤرخ الانجليزي المعاصر كولينجوود[1] (1889-1943) يرى أن " التاريخ فلسفة والفلسفة تاريخ لا أكثر "[2].

لكن يبقى السؤال أين تكمن تلك العلاقة، أو ذلك التكامل بين التاريخ والفلسفة ؟

إن التأريخ كما هو معلوم لدى كل مؤرخ ليس عملية بسيطة، كما قد يتبادر إلى الأذهان، بل هو جملة من الخطوات والمراحل يقوم بها المؤرخ، وكل مرحلة لا تخلو من الفلسفة بدءا بتحديد مفهوم التاريخ إلى موضوعه فمنهجه والحكم على قيمة الكتابات التاريخية.

فلو بدأنا بمسألة تحديد مفهوم التاريخ، نلاحظ أنه يطرح إشكاليات عديدة كإشكالية معنى هذا المصطلح والفرق بين الخبر والتاريخ وإشكالية كون التاريخ علم أم فن أم ليس علما وما ترتب عن هذه الإشكاليات من مواقف لا تخلو من فلسفة فكلمة تاريخ عند (أرسطو) كانت تدل على المعرفة، وعلى مجرد جمع الوثائق، أما عند (فرانسيس بيكون) فهو العلم بالأمور الجزئية. ويقسمه إلى تاريخ طبيعي وتاريخ مدني.[3]

لكن هذا التقسيم يرفضه بعض المؤرخين المعاصرين انطلاقا من نظرة لا تخلو من فلسفة. فالمؤرخ الإنجليزي المعاصر (كولينجوود Collingwood) يقول:"الطبيعة ليس لها تاريخ ولا يمكن أن يكون لها تاريخ، سواء عرض لها رجل العلم عن طريق الإدراك الحسي، أو عن طريق التفكير"[4] وموقف كولينجوود هذا قائم على نظرة خاصة لموضوع التاريخ، فهو يرى في كتابه (فكرة التاريخ) أن الشرط الوحيد الذي يكفل وجود تاريخ للطبيعة

هوان تكون هذه الطبيعة بمثابة أفعال أو أعمال من تفكير البشر. وإلى مثل ذلك يذهب (ريمون آرون)[5] في كتابه (مدخل إلى فلسفة التاريخ) حينما قال: "وعلى عكس الحيوان فإن الإنسان يملك تاريخا لأنه يصير عبر الزمن خلال ما ينجز من أعمال

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

تستمر في الوجود بعد مماته ولأنه يحضن أعمال ومنجزات أسلافه ويحتفظ بها". فريمون آرون يرفض أن يكون للنوع الحيواني تاريخ لأن حياة هذه الأخيرة تقتصر على الجانب البيولوجي فقط لذلك يقول "يتخلّص التاريخ بالنسبة للنوع الحيواني إذن في عمليات الولادة والتكاثر والفناء".

فريمون آرون يرى أن التاريخ غير منفصل عن ماهية الإنسان التي تختلف كليا عن ماهية الحيوان التي لا تعرف تغيرا أي " لم يتعلم بعضهم عن بعض شيئا ولم يخلف بعضهم لبعض شيئا"

فهذه النظرة للتاريخ وغيرها لا تنظر إلى التاريخ من زاوية سطحية أو على أنه مجرد أحداث، بل نظرة عميقة لا تخلو من فلسفة في النظر إلى أهمية موضوع التاريخ وبالتالي تحديد معناه.

وهنا يبرز ذلك التكامل بين عمل المؤرخ والفيلسوف. وليس أدل على ذلك من وجود فلاسفة مؤرخين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر (ابن خلدون، أرنولد توينبي، كروتشة، كولينجوود وغيرهم) اهتموا بتعريف التاريخ وموضوعه ومنهجه.

إن ابن خلدون كان مؤرخا وفيلسوفا فيما كتبه، لأنه رأى أن التاريخ لا يخلو من فلسفة عندما حاول بيان الفرق بين التاريخ في ظاهره والتاريخ في باطنه عند قوله: "أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال...فهو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول...وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق"[6] فابن خلدون في هذا القول يجزم بتكامل التاريخ والفلسفة(أو الحكمة على حد تعبيره)، بمعنى أن المؤرخ يجب أن لا يخلو من فكر فلسفي يرشده أثناء التأريخ بعد جمع مادته، لأن المادة التاريخية لا تشكل وحدها تاريخا: فهي من جهة تحتاج إلى دراسة للتثبيت من صحتها، وفي هذا الجانب يقول ابن خلدون: "فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وللتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط". فتأكيد ابن خلدون هذا على ضرورة دراسة المادة التاريخية قبل الاعتماد عليها عند التأريخ مرحلة لا غنى عنها، وهي تمثل الجانب الابستيمولوجي الذي يهتم بنقد الوثيقة نقدا داخليا ونقدا خارجيا، والتحذير من خطورة الاعتماد على النقل في الخبر لما ينجر عنه من أخطاء، لذلك يقول: "لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق"[7].

وابن خلدون بهذا القول يرشد المؤرخ إلى القواعد والمقاييس التي يجب الالتزام بها أثناء التأريخ ليتمكن من التثبت من مادته التاريخية وفهمها فهما عميقا، وبالتالي تجنب الوقوع في الخطأ، فالمؤرخ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

محتاج إلى منطق، في ضوئه يمكنه التعرف على الزائد في الكلام والزائف، خصوصا في عصر ابن خلدون (عصر الانحطاط) وما شاهده من نقص في هذا الجانب، وقد أشار إلى ذلك عند قوله: "وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأيمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط"[8].

وابن خلدون لم يكتف بإرشاد المؤرخ إلى القواعد والمقاييس الفكرية التي يجب الالتزام بها أثناء دراسة المادة التاريخية (الوثيقة)، بل اهتم كذلك بالتنبيه إلى الأسباب النفسية التي تدعو إلى المبالغة في الخبر ونقله، فهو يشير إلى الذاتية التي لعبت دورا كبيرا في تزييف الخبر التاريخي، وقد ذكر أمثلة عديدة في ذلك نذكر منها قوله: "وما ذلك إلا لولوع النفس في الغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد.ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله".

ولم يكتف ابن خلدون بذكر هذه الأسباب الظاهرة، للوقوع في المغالط، بل هناك أسباب خفية لا تظهر إلا للحكيم النافذ البصر ولا يمكن أن تبدو للإنسان سطحي الفكر ومن هذه الأسباب يذكر ابن خلدون ما يلي: "ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل العصور ومرور الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الآحاد من أهل الخليفة"[9].

وابن خلدون هنا يشير إلى قواعد تطور المجتمعات عبر الزمان فهو يرى أن أحوال الأمم وعوائدهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، بل تتغير تدريجيا عبر الزمان وتنتقل من حال إلى حال فعلى حد تعبيره "كما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول"[10].

فهذه الخطوة التي أشار إليها ابن خلدون تمثل الجانب الباطني لدراسة المادة التاريخية وانتهاج أسلوب الفهم فيها، وهذه الخطوة تؤدي إلى خطوة أخرى في التأريخ وهي التفسير أو التأويل، وهذه المرحلة تمثل الجانب التأملي من فلسفة التاريخ قد يلجأ المؤرخ إلى بعد فلسفي معين يفسر به تطور الأحداث التاريخية، خصوصا فيما يتعلق بتاريخ الدول والحضارات.

فنجد مثلا نظرية التعاقب الدوري عند ابن خلدون التي تقوم على مقولة العصبية في تفسير نشأة الدولة ومرورها بالأطوار الثلاثة (طور البداوة ثم التحضر فالانحطاط).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي هذا الجانب نجد اعترافا وتقديرا كبيرين لابن خلدون من قبل مفكرين ومؤرخين كبار نذكر مثلا قول نيكولسون [11]: "لم يسبقه أحد إلى اكتشاف الأسباب الخفية للوقائع أو إلى عرض الأسباب الخلقية والروحية التي تكمن خلف سطح الوقائع أو إلى اكتشاف قوانين التقدم والتدهور"[12].

وكتب عنه المؤرخ الإنغليزي المعاصر أرنولد توينبي:[13] "إنه يستلهم أحدا من السابقين ولا يدانيه أحد من معاصريه بل لم يثر قبس الإلهام لدى تابعيه مع أنه في مقدمته للتاريخ العالمي قد تصور وصاغ فلسفته للتاريخ تعد بلا شك أعظم عمل من نوعه"[14]. فهذه الأقوال تنم عن قيمة فكر ابن خلدون التاريخي تعبّر بصدق عن أهمية ما قام به من جمع بين الفلسفة والتاريخ.

وفي هذا الموضوع نجد كذلك نظريات للعديد من المؤرخين والفلاسفة الغربيين، وهي مغايرة لفكر ابن خلدون التاريخي، مثل المادية التاريخية عند كارل ماركس وهي تتميز ببعدها الاقتصادي في تفسير تطور المجتمعات عبر التاريخ، ونظرية هيغل ذات البعد الميتافيزيقي (الفكر هو الذي يقود الشعوب في العالم)، ونظرية (التحدي والاستجابة) للمؤرخ الإنجليزي المعاصر (أرنولد توينبي).

وكل هذه النظريات بمشار بها المختلفة تهدف إلى غرض واحد وهو إمكانية فهم سير التاريخ، وهي خطوة فلسفية يرى بعض المؤرخين أنه لا يمكن الاستغناء عنها، يقول (لويس غوتشلك) Louis Gottschalk (ولد سنة 1899) المفكر التاريخي الأمريكي المعاصر في كتابه (كيف نفهم التاريخ): "وبما أن هنالك طرقا مختلفة لعرض الحقائق التاريخية، فإن الحقيقة لا تظل هي الأساس الوحيد للحكم على قيمة الكتابات التاريخية، إذ المعيار الثاني من المعايير التي يزن بها المرء تلك الكتابات هو ما تنطوي عليه مبادئ الكاتب الفلسفي من بصيرة"[15].

ولويس غوتشلك من المفكرين الذين يرون ضرورة وجود الفلسفة في التاريخ لأنها تمثل الأسس التي يقاس بها التغير عبر الزمان. لأن التاريخ ليس مجرد أحداث مرتبة ترتيبا زمنيا، بل هو كما يرى غوتشلك: "فحيث لا يتوفر إحساس بالتطور، قد نجد تبويبا لتفاصيل تاريخية مرتبة ترتيبا زمنيا أو حسب نظام منطقي من العناوين الصغيرة، غير أن هذا لا يمكن بحال أن يعرض قصة مستمرة بها للأصول أو النمو أو الاتزان أو الركود أو الانحطاط، وكي يستطيع المرء أن يرى الأشياء تنمو أو تنهار أو أنها تظل على حالها فقط...لا بد أن تكون لديه فكرة عن ماهية النمو، أي أن تكون لديه فلسفة في الأهداف ومقياس للصالح والطالح"[16]. وهو بهذا القول يشير بطبيعة الحال إلى نظريات فلسفة التاريخ سواء منها المادية أو المثالية أو القائمة على العناية الإلهية أو المؤمنة بتقدم البشرية أو عجزها عن بلوغ الكمال...الخ. وهو ما لا ينبغي على المؤرخ أن يتغافله بل يجب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاهتمام به والحكم عليه ولكن في ضوء مقاييس يجب أن تتوفر في المؤرخ ليحكم عليها في نباهة وفطنة ولذلك يقول (لويس غوتشلك) "يحتاج المؤرخ إلى بعض القواعد الفلسفية والأخلاقية لا ليضع تاريخا يتجاوز مجرد تبويب الحقائق بل أيضا لكي يحكم في فطنة على الكتابات التاريخية التي ينتجها غيره"[17].

إن هذا القول لـ (لويس غوتشلك) ينبهنا كذلك إلى دور آخر للفلسفة في التاريخ، وهو المنهج. فالحكم على الكتابات التاريخية لا يقتصر فقط على ما تحمله من فلسفة لتفسير الصيرورة التاريخية، ولكن المنهج الذي يتبعه المؤرخ، ولا يخفى ما للفلسفة من دور في هذا الجانب والنقاش الحاد الذي دار بين الفلاسفة و المؤرخين حول هذه النقطة بالذات، وما ترتب عنه من مواقف أدت إلى ظهور نظريات في المنهج التاريخي كان أساسها ذلك النقاش الحاد الذي دار حول مسألة صفة العلم أو نفيه عن التاريخ.

وما يمكن أن نخلص إليه مما تقدم أنه لا يمكن الفصل بين الفلسفة والتاريخ واعتبارهما ميدانين متباعدين، بل توجد صلة قوية بينهما لتقديم عمل تاريخي متكامل.

الهوامش:

[1]- كلينجوود Robin George Collingyood فيلسوف ومؤرخ انغليزي.

[2]- مجلة عالم الفكر، المجلد لثاني، العدد الثاني، 1971.

[3]- جميل صليبا/ المعجم الفلسفي، ط1، 1971، دار الكتاب اللبناني بيروت، لبنان، الجزء الأول.

[4]- كلينجوود/ فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1961 القاهرة مصر، ص516.

[5]- Aron raymond (1905-1983) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي.

[6]- ابن خلدون: المقدمة.

[7]- ابن خلدون: المقدمة.

[8]- ابن خلدون: المقدمة.

[9]- ابن خلدون: المقدمة.

[10]- ابن خلدون: المقدمة.

[11]-.Nickolson Reynold.

[12]- Nickolson Reynold Liberty of the arabs, p35.

[13]- Arnold toynbee (1889-1975)

[14]- نقلا عن أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ ص.133

[15]- Louis Gottschalk/ Understanding history, copy right 1950 by Alfred A.Knop F, inc, published by Alfred, New York, USA, p22

[16]- لويس غوتشك/ كيف نفهم التاريخ، ص23.

[17]- نفس المرجع السابق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com